سؤال المنهج في قراءة المصحف

بقلم ناجي حجلاوي

حوْل كتاب الله يُثار أمران مختلفان: الأوّل يتمثل في السؤال التالي: هل يتضمن المصحف أدوات لإنتاج نظرية في المعرفة؟ والأمر الثاني يدور حوْل الأدوات المنهجية التي توسل بها المفسرون في المنظومة التراثية لتفسير كلام الله. والأمر الثاني هو الذي نحن منه بسبيل في هذه الورقة. لقد خضعت المنهجية في التفسير التقليدي إلى النقل الذي من شأنه أن يُثير قضايا أكثر مما يقدم أجوبة.

فكانت في إطاره الأدوات التالية: أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه الخاص والعام والقراءات. ولقد عمد الفعل التفسيري إلى اعتماد الشعر عونا على فهم المعاني القرآنية بالرغم من أن الآيات صريحة في تهجين الشعر لأنه يعتمد الخيال والكذب والمبالغات والترادف والكتاب يرفض كل ذلك. والنّتيجة هي الوقوع في اضطراب منهجيّ أخفى العديد من المعاني الواردة ثِني النّص القرآني. وقد عمد المفسرون إلى اعتماد القياس وهذه الأداة تُعيد الزّمن الثقافي إلى الوراء لأنه يظلّ مشدودا إلى نماذج عليا كانت قد أُنجزت.

إن العقل المُنتج من هذه الأدوات عقل لا يؤمن بالوجود، وإنّما هو عقل اتّصالي، يحرص على الاِتّصال بفترة مضت وسُنّة انقضت فسيّج ذاته بذاته بمنظومة تراثية استجابت لفترة ايجادها وما عادت صالحة لهذا الزمن.

وإذا أردنا التّحقيب لهذا العقل المنجَز فبالإمكان إرجاعه إلى حقبتين: حقبة ما قبل التّرجمة وقد سادت فيها الإسرائيليات، بما تعنيه هذه الكلمة من نمط في التّفكير وطريقة في إدراك الأشياء. أمّا الحقبة الثّانية، فهي ما بعد التّرجمة، التي اضطلعت بها بيت الحكمة. وفي هذه الفترة ساد التّأثّر بالتّفكير اليوناني. وفي كلتا المرحلتين ذهل العلماء عن الانتباه إلى الأدوات التي رغب الوحي في التّركيز عليها، كالتّدبّر والتّرتيل، والتّقليم، والغريب أنّ هذا الوحي قد تشكّل في لسان عربي مبين والذين أُنزل عليهم هم أصحاب هذا اللّسان.